استشراف مستقبل القدس وشروط حمايتها

أ. زهير الدبعي

لا أحد منا لا يتخذ من تحرير القدس شعارا ، بل إن كثيرا من الصراعات الانتخابية الطلابية – وغيرها – استخدم المتصارعون فيها اسم القدس متراسا في شعاراتها وقذائفها وبرامجها . واستخدمت القدس بمثابة فرصة لتبادل الاتهامات والخطب والمهرجانات .

ولو أن الأوطان تتحرر بالشعارات والخطب والمهرجانات والبرامج الانتخابية ، لكنا قد أحرزنا تحريرا للقدس منذ عقود طويلة . لكن ألسنتنا أطول كثيرا من أيدينا ، وقدرتنا على الخطابة تفوق قدرتنا على البناء ، وإمكانياتنا في تأجيج المشاعر وإلهاب العواطف ، تفوق كثيرا قدرتنا على جمع المعلومات وتحليلها والاستفادة منها . وخبرتنا في الأداء القبلي العشوائي أرسخ كثيرا من خبرتنا في بناء المؤسسات .

وكي يكون العلاج مضمونا يستدعي أن يكون الباحث دقيقا . وإلا فإن أنجع الأدوية ، وكل التضحيات والخسائر ، والرهان على التغيير لن تحقق لنا الشفاء من داء الاحتلال . وكي يكون تشخيصنا بعيدا عن الارتجالية والعشوائية يتعين علينا الاعتراف بأن المشروع الصهيوني بدأ التركيز على القدس منذ منتصف القرن التاسع عشر .

وهذا ما أكده محمود نهار الشناق في كتابه (العلاقات بين العرب واليهود في فلسطين 1876-1914) منشورات مطبعة بابل \ حلحول – الطبعة الأولى 2005 :

« وكان لهم أكثر من (50) جمعية لشراء الأراضي . ومن الملاحظ أن بيوعات وشراء الأراضي ، والعقارات المختلفة من دور ، ودكاكين ، ومخازن ، ومقاهي ، قد تركزت في القدس وخارج أسوارها ، من جهة باب الخليل ، وفي ضواحيها من قرى (لفتا والمالحة) بواسطة التجار الألمان والإنجليز وتجار يهود أجانب كشركاء « . وجاء في نفس المصدر : « أدرك السلطان عبد الحميد الثاني خطر اليهود ، فكتب فرمانات متوالية بخط يده سنة (1308-1891) لكي يمنع استيطانهم في فلسطين خشية قيامهم بتشكيل حكومة يهودية عنصرية في فلسطين ، وبعثه إلى الصدارة العظمى لاتخاذ قرار عام في هذا الموضوع . ونص الفرمان الأول الصادر في (21 ذي القعدة 1308-1891) : « بأن قبول اليهود الذين طردوا من كل مكان ، في الدولة العثمانية ، سيؤدي في المستقبل إلى تشكيل حكومة يهودية ، فينبغي أن يتخذ مجلس الوزراء العثماني قرارا قطعيا بخصوص تفاصيل هذا الأمر ، برد جميع اليهود الذين سيدخلون فلسطين « .

لكن الفساد وسوء الإدارة ، أحبطا فرمانات السلطان وجعلها مجرد حبر على ورق ، وفتحت الأبواب أمام تنفيذ مخططات المشروع الصهيوني في القدس وكل فلسطين ، ودليل ذلك قامت جمعية (أحباء صهيون) بمحاولات لشراء أراض في فلسطين بعد تمويلها من قبل أحد أثرياء يهود روسيا . وعند تفتيشها عن أراضي ، علمت أن الحكومة قد عرضت أراضي لسبع قرى تابعة لقضاء يافا للبيع، في المزاد العلني ، لعجز أصحابها عن تسديد الضرائب المقتضى تسديدها لخزينة الدولة ، ووافقت الجمعية على شرائها ، خاصة وان الأراضي قريبة من الساحل ، لكن هذه الصفقة لم تحظ بموافقة والي

القدس (رؤوف باشا) ببيع الأرض وتسجيلها باسم مواطنين أجانب . عندها تدخل نائب القنصل الإنجليزي في يافا الحاخام (حاييم امزليق) . وتم شراء الأرض البالغ مسحتها (3340) دونما ، وسجلها باسمه ، على أن يقوم بتحويلها إلى أعضاء الجمعية ، وأسست عليها مستوطنة (ريشون ليتصيون) في آب 1882 .

ويعطي تقرير محمد آصف قائم مقام يافا إلى متصرف القدس بتاريخ 62\حزيران \3231هجرية، صورة عن رغبة وحرص عدد من الموظفين العثمانيين تنفيذ تعليمات استنبول بمنع الهجرة ، ومنع بيع الأراضي . كما يبين التقرير أيضا فساد بعض الموظفين ، ولجوء الصهاينة إلى حيل كثير للالتفاف حول التعليمات ، بمشاركة ومؤازرة قناصل دول أروبية ، الذين كانوا يتمتعون برزمة من الامتيازات والحقوق الاستثنائية التي تمس سيادة الدولة العثمانية وصلاحياتها وهيبتها .

وهذا نص التقرير :

« الهجرة الموسوية إلى أرض فلسطين ، عن طريق قضاء يافا ، وإسكان هذا العنصر الأجنبي القادم، سوف يسبب ويشكل تهديدا إلى الحكومة السنية ، ويعتبر أمرا مهما وخطرا للغاية ، ويدخل كل أسبوع ، بل كل يوم إلى البلاد مئات اليهود الأجانب ، ويجب اتخاذ التدابير اللازمة لمنع مثل هذا الأمر ، وأعرض لكم بعض الأمور المتعلقة باليهود ، وهي :

تاريخ مهاجرة هؤلاء اليهود ، من أي دولة أتوا ، وجنسيتهم والمكان الذي يقيمون فيه ، والحيل التي يستعملونها ، وتدخلات القناصل ، والتدابير التي تستخدمها الدولة ، ولم تستطع بها منع الهجرة ، سوء عمل الموظفين وفسادهم ، تهريب اليهود عن طريق حيفا وبيروت برا ، التدابير المتخذة في هذا الشأن ، والسجون » .

ومن الضروري الإشارة إلى التزام بريطانيا بالمشروع الصهيوني فكرة وإجراءات وفي جميع المراحل والمواقف، وهذا واضح في كثير من المراجع ، ومن بينها ما أوردته نائلة الوعري في كتابها (دور القنصليات الأجنبية في الهجرة والاستيطان اليهودي في فلسطين 1840-1914) منشورات دار الشروق رام الله -الطبعة العربية الأولى 2007 :

« ويلاحظ أن هناك ظاهرتين أثرتا في تاريخ فلسطين الحديث ، وكانت لهما نتائجهما على الهجرة والاستيطان اليهودي في فلسطين ، أولا : نظام الامتيازات الأجنبية ، ثانيا : النظام القنصلي ، أوضحت متصرفية القدس بان القنصل البريطاني العام في القدس رفض أن يكون اليهود الروس الذين لم يتمكنوا من العودة إلى بلادهم بعد أن كانوا زاروا فلسطين بذريعة السياحة والعمل - ظاهريا - تحت دائرة الاختصاص والمسؤولية العثمانية حتى سارعت بريطانيا إلى منحهم الجنسية البريطانية إلى جانب حق حمايتهم ، وقد كانت هذه الحادثة بمثابة مثال للضغوط التي مارسها وزير الخارجية البريطاني بالمرستون على الدولة العثمانية ، بهدف السماح لليهود بالإقامة في فلسطين ، وبخاصة الذين هم في إطار الحامية البريطانية . لذا فقد تابع البريطانيون تنفيذ أطماعهم الاستعمارية تحت ذريعة إنقاذ فلسطين مما تعاني منه من خراب وعزلة و تخلف وأنها (أي بريطانيا) تنوي إحلال شعب قادر على الإصلاح والعطاء وقادر كذلك على أن يجعل فيها جنات عدن . إن هناك الكثير مما يمكن تناوله حول الدعم البريطاني اللامحدود لليهود في فلسطين ، والذي جاء على خلفية السيطرة الاستعمارية البريطانية لفلسطين خلال القرن التاسع عشر » .

ونستخلص مما ورد بأن قدرة الأمة على الدفاع عن وجودها وحماية أبنائها وأرضها ومقدساتها ومقدراتها لا يتحقق بوجود خليفة أو سلطان مؤمن أو تقي فحسب ، وإنما أمة بكل شرائحها وأطيافها

ومواقعها قادرة على الرد ، وبناء مؤسسات حديثة فاعلة نظيفة من الفساد والخلل والانحراف .

فقد غرس المشروع الصهيوني وجوده في القدس منذ منتصف القرن التاسع عشر ، رغم عدة إجراءات قررها السلطان ، ومنها :

بناء على توجيهات السلطان لإعادة بناء التنظيم الإداري في فلسطين ، بعد أن لمس أن النفوذ الأجنبي فيها أصبح متجذرا ، وخطرا في آن واحد على مستقبلها ... فقد ثبت (متصرفية القدس الشريف) عام 1887 ككيان إداري مستقل عن ولاية سوريا ، شملت جنوب فلسطين ووسطها ... فجاء الإجراء السلطاني هذا لعدة اعتبارات تحقيقا لسياسته من أجل :

أولا : الحد من النفوذ الأجنبي ووقف التدخل المتزايد للدول العظمى في شؤون إقليم فلسطين عن طريق قناصلها .

ثانيا : الحد من تزايد دخول يهود أجانب إلى فلسطين ، الذي كان يتم عن طريق تهجيرهم من أوطانهم ، ومنع دخولهم إلى البلاد وشرائهم الأراضي .

ثالثا : رفع مكانتها وصعودها أكثر كونها تحد مصر جنوبا .

ومما يدل أيضا على اهتمام الدولة العثمانية بالقدس أن أول مجلس بلدي أنشئ بعد مجلس بلدي استنبول ، هو مجلس بلدية القدس بفرمان سلطاني عام 1863 .

تكمن مشكلتنا طيلة قرن ونصف من الغزو والأخطار ، ومن المقاومة ، أننا نتذمر من مواطن الفساد وأسباب الخطر ، فنرفض ونتحرك ، لكن نتيجة مقاومتنا لا تحقق لنا غاياتها أو نصف أو حتى ربع ما نريد ، وإنما يتغير الجلاد وتستمر عملية الجلد ، ويتغير السجان ونبقى سجناء ، ويتغير الظالم ونبقى في خانة المظلومين . وكأننا وفي كل المراحل ، ومنذ نصف القرن التاسع عشر ، وحتى مطلع القرن العشرين (نهرب من الدلف إلى تحت المزراب) . ولدى كل منا مئات الشواهد التي تؤكد أن التغيير لم يكن في كل المراحل إلى الأفضل ، بل إلى الأسوأ رغم تعدد الشعارات ، ورغم دعوات الإصلاح ، ورغم انتشار التعليم المدرسي والجامعي على نطاق واسع .

ويعطينا المقدسي واصف جوهرية صورة واحدة عن نتائج التغيير والإصلاح ، التي راهن عليه أجدادنا ، وكيف سقطوا ضحايا الخداع ، وذلك في الكتابين الأول والثاني من مذكراته التي نشرتهما مؤسسة الدراسات المقدسية – القدس ، تحرير وتقديم سليم تماري وعصام نصار ، تحت اسم (القدس العثمانية في المذكرات الجوهرية) في العام 2003 ، و اسم (القدس الانتدابية في المذكرات الجوهرية) في العام 2005 . قال الجوهرية في الكتاب الأول :

« عندما كنا تحت ظل الأشجار كانت تمر في الجو فوق رؤوسنا بعض طائرات العدو الإنجليزي . وكان ذلك في منتصف سنة 1917 فيقوم العم أبو سليم بثوب النوم ، وكان قصير القامة ، وينادي بأعلى صوته مخاطبا الطائرة فيقول (خلصونا عاد أدخلوا البلاد وخلصونا من استبداد واستعباد الأتراك). وهذا دليل واضح على رغبة أهالي فلسطين الصادقة في التخلص من بني عثمان ، وما دروا أن بريطانيا خانت العهد وباعت البلاد ، وذلك قبل احتلالها سرا إلى اليهود . وكثيرا ما كنت أذكر العم أبو سليم بما كان يعمله ونحن شاطحين من داره ، وذلك بعد الاحتلال البريطاني ، فينكسف ، ويقول (والله يا واصف غشونا ، وجبنا الأقرع ليونسنا كشف قرعته وخوفنا .. فيا حبذا لو بقينا على ديننا العتيق أي الحكم التركي » .

وقال الجوهرية في الكتاب الثاني من مذكراته : « تبدلت أفراحنا بمناسبة الاحتلال البريطاني من نير الاحتلال الظالمين ... تبدلت بالأتراح عندما لمسنا نوايا بريطانيا السيئة اتجاه البلاد وأهلها ،

ونشرت على الملأ بلا خوف ولا وجل وعد بلفور المشئوم ... وكانت الفاتحة تعيين أول مندوب سامي لفلسطين يهوديا ، بل من أقطاب الصهاينة العالميين . أذكر أنني أطلعت صدفة على جريدة الكرمل، التي كانت تصدر بعد الاحتلال في حيفا وإذ كان مكتوبا بها هذه الأبيات :

طلع ما أصعب نصه تلغراف سان ريمو وللي يقول لك ما بيخصه ربنا لا يعينه

وفي الحال ، وبصفتي فنانا تجلت الفكرة في مخيلتي ، فألفت بعض الأبيات بالإضافة إلى الترديدة المذكورة أعلاه ، وكانت تطابق لحن طلعت يا محلى نورها شمس الشموسة ، من تلحين المرحوم سيد درويش ، فقلت :

طلع ياما أصعب تلغراف سان ريمو اللي بقول لك ما بيخصه ربنا لا يعينه
ما قريتش يا خويا أخيرا في جريدة الكرمل مصيبتنا السودة بتعيين المستر صموئيل
ومن في الدنيا ما سمعشي دلال بيدلل واللي ما بيعجبوش من الصبح يحمل
لا تقول مسيحي ومسلم ما دام باعونا كيف بكرة بدنا نسلم اللي اشترونا
كلمة (شالوم) يا خويا راح يجبرونا وكمان (ماشلومخا) يا ربي تفرجها علينا
بدال عن اسم أنور وجمال حكمونا شبتاي وشلوم وحاييم اللي يكرهونا
يا خسارة عليك يا وطنا راحت رجالنا وبيظهر غزلانا تقلبت بقرود حوالينا

ومن المدهش أن يراهن بعض أبناء امتنا في فلسطين ، وغيرها من أقطار وطن العرب ، على المستعمرين أنسفهم بدعوى أنهم من دعاة الديمقراطية وحقوق الإنسان وحريصين على حق الفلسطينيين والعراقيين في الحرية والعدل . وهذا ناجم عن جهل كثير من قادة الرأي العام ، ومن بينهم المشتغلين بالسياسة على تنوع أطيافهم وتياراتهم ومواقفهم . وهذا يبرهن أن الفصاحة والبلاغة وفروسية المنابر، وأضواء الفضائيات ، لا تغني عن دراسة التاريخ دراسة عميقة دقيقة وعدم الاكتفاء باستعراض مشاهد من التاريخ بصورة عاطفية ، وبأسلوب شركات الدعاية والتسويق ، وليس بمسئولية دارسي التاريخ ، والمدركين لأهمية حماية ذاكرة الأمة والوطن .

وأورد عارف العارف في كتابه (المفصل في تاريخ القدس) منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت الطبعة الرابعة 2007 . أورد العارف ما يؤكد تركيز المشروع الصهيوني على التعليم في القدس حيث بلغ عدد مدارسهم في العام 1947 (99) مدرسة ، فيما بلغت مدارس العرب (56) مدرسة . فضلا عن الجامعة العبرية التي اشترى الصهاينة الأرض التي أقيمت عليها عام 1913 ، ووضعوا حجر الأساس في العام 1918 ، واحتفلوا بتدشينها في العام 1925 .

وعمل المشروع الصهيوني على إقامة المشاريع النوعية المواكبة للتكثيف الاستيطاني في القدس، ومن هذه المشاريع النوعية تأسيس مستشفى هداسا في العام 1932 ، وشبكة واسعة من المدارس بالإضافة إلى الجامعة العبرية . ولم تتوقف أطماع المشروع الصهيوني بتواجدهم المتصاعد كما و نوعا في القدس بحيث أصبح عددهم في العام 7491 (004،99) فيما كان عدد العرب (65،100) وإنما لكل مقدمة نتيجة ، وليس للاستيطان نتيجة سوى اقتلاع العرب وتهجيرهم ، وهذه هي السياسة المركزية للمشروع الصهيوني على تنوع الحكومات والقادة والشعارات والمراحل .

وتعطينا كثير من المصادر والمراجع ما يؤكد إصرار قادة المشروع الصهيوني على اقتلاع وطرد العرب من القدس كلها ، وكذلك من (38) قرية قضاء القدس . ومن هذه المراجع كتاب (القدس

1948\الأحياء العربية ومصيرها في حرب 1948) تحرير سليم تماري \ منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية \ بيروت . وهذه اقتباسات من الكتاب :

« بدأت قوات الاحتلال ، قبل مجزرة دير ياسين تنفيذ خطط لتهجير المواطنين اقتلاعهم من بيوتهم في معظم أحياء القدس ، وكذلك في القرى المجاورة لهذه الأحياء ، ومنها قرية لفتا . وفي تقرير للاستخبارات البريطانية :

« بعد يوم من القنص العربي في 11\كانون الثاني 1948 ، تولت الهاجاناة ، معالجة الأمر ونسفت منزل الحاج سليمان الاهمني ، مختار قرية لفتا ، وأعقب ذلك غارة في 13كانون الثاني ألحقت أضرارا بنحو 20 منزلا ، وتم إخلاء ضاحية بدر ، بعد أن تلقى السكان أمرا من الهاجاناة بالمغادرة ، وفي 16كانون الثاني نهب جمهور يهودي منازلها . واشتملت حملة التفجيرات التي قامت بها الهاجاناة على تفجير مروع لفندق سميرا ميس في القطمون في 4 كانون الثاني 1948 وهو ما أدى إلى مقتل (26) مدنيا ، وكان معظم القتلى من أفراد عائلتين عربيتين من عائلات القدس ، ودبلوماسي إسباني « .

حاولت الهاجاناة (العصابة المسلحة الرئيسية التي شكلت فيما بعد العمود الفقري للجيش الإسرائيلي) في البداية الضغط على العرب لإخلاء هذه المناطق باستخدام الحرب النفسية ، فوجه أعضاؤها إلى قادة الأحياء العربية تهديدات بواسطة ملصقات ورسائل ومكالمات هاتفية . ثم ، ومن أجل خلق جو عام من عدم الأمان ، تسللت مجموعات من الهاجاناة إلى الأحياء لقطع أسلاك الهاتف والكهرباء ، وإلقاء قنابل يدوية ، وإطلاق النار في الهواء . بالإضافة إلى ذلك نسفت مبان بحجة أنها تستخدم قواعد لأنشطة عسكرية عربية . ونفذت قوات الاحتلال خططها لتهجير أهالي القدس من جميع الأحياء التي استولت عليها وتبلغ ثمانية أتساع القدس ، وبقي في الأحياء المحتلة من القدس (750) فردا منهم 550 يونانيا ، وشكل الباقون وهم 200 مواطن ، أي أقل من نصف في المائة من السكان العرب الفلسطينيين الأصليين في ذلك القسم المحتل من المدينة في العام 1948. واعتبرت قوات الاحتلال آلاف البيوت التي استولت عليها بما فيها من متاع ومقتنيات (أملاك غائبين) ومنعت أصحابها من العودة إليها ، ومنهم ، عائلتا شكري أمين النمري ويوسف رشيد النمري من البقاء في حي النمامرة بالالتجاء إلى الكنيسة الألمانية . وبعد الحرب حاولتا العودة إلى منزليهما ، لكن السلطات العسكرية الإسرائيلية منعتهما بإعلان المنزلين أملاك (غائبين) .

ولأننا لم ندرس الهزيمة دراسة الباحث عن الحقيقة ، فإن الاحتلال تمكن من احتلال التسع الأخير من القدس في حزيران 1967 ، التي احتل ثمانية أتساعها في العام 1948 . لتقع البلدة القديمة، بما في ذلك المسجد الأقصى المبارك وكنيسة القيامة في قبضة الاحتلال بعد (780) عاما من تحريرها بقيادة صلاح الدين الأيوبي .

ولم يتوقف الاحتلال عن تنفيذ مخططاته لطمس كل المعالم العربية في القدس والتضييق على أهلها بكل أساليب الإرهاب والتضييق . ويزودنا الباحث نظمي الجعبة بصورة دقيقة لخطوات الاحتلال الأولى في حزيران 1967 في تهجير المواطنين العرب وتوطين الصهاينة مكانهم ، والتضييق على المقدسيين ، بمئات أساليب الضغط والتطفيش الشيطانية الإرهابية ، وطمس كل المعالم العربية في فلسطين ، والتعتيم على روحها وصولا إلى صهينتها ، وذلك في مقال له في (حوليات القدس) رقم (1) :

« يبدو أن التخطيط للسيطرة على البلدة القديمة قد سبق احتلالها بفترة طويلة . وقد تجاهلت

القيادة الإسرائيلية مطلب الحاخامين ، وخاصة الحاخام غورين (حاخام الجيش الإسرائيلي عام 1967) بهدم قبة الصخرة والمسجد الأقصى المبارك لإنشاء هيكل ثالث . وبهذا أرسلت الجرافات مباشرة إلى حي المغاربة ، ولم تمض ثلاثة أيام على احتلال القدس ، إلا وقد انتهى مسح وجود هذه الحارة التاريخية التي أنشئت في الفترة الأيوبية . بعد أن أعطي سكانها مهلة ثلاث ساعات لإخلائها . بلغ عدد العائلات التي شردت من الحارة 135 عائلة ، وكان من بين الضحايا عدد من المباني التاريخية ، منها مسجد البراق ، والمدرسة الأفضلية ، بالإضافة إلى تراث مغربي أندلسي رافقناه في هذه المدينة مدة 900 عام .

إخلاء حارة اليهود : امتلك اليهود ما نسبته 15% تقريبا من مساحة حارة اليهود أي 105 بنايات من مجموع 700 بناية ، وشكلت الملكيات اليهودية عام 1948 ما نسبته 0،6% من مجموع مساحة البلدة القديمة . في حين بلغت الملكيات اليهودية حتى عام 1948 ما نسبته 13% من مجموع مساحة القدس بشرقها وغربها (خارج الأسوار) .

في نيسان \أبريل 1968 قامت إسرائيل بمصادرة 30 هكتارا لإعادة إعمار حارة اليهود . وكان عدد الفلسطينيين القاطنين في ذ لك الجزء من المدينة (الذي تجاوز بمساحته مفهوم حارة اليهود ما قبل 1948) حوالي 550 نسمة ، غالبيتهم من الذين سكنوا الحارة قبل عام 1948 . وقد تمت المصادرة بناء على القانون الانتدابي (1943) وذلك بهدف المنفعة العامة ، كذلك استخدم قانون أملاك الغائبين ، وبهذا تمت مصادرة كل الأملاك سواء كانت عربية أم يهودية ، تلك التي سكنت من قبل اليهود أو العرب ، مستأجرين كانوا أم ملاكا ، عربية أم يهودية ، سواء كانوا مقيمين أم غائبين ، لاجئين أم دائمين . وقد اقترحت إسرائيل تعويضا قدره 500-3000دولار للملكية الواحدة . ومع حلول عام 1975 تم إسكان ما مجموعه حوالي 1500 نسمة يهودية تقريبا ، فيما أصبح يسمى ب « حارة اليهود » .

تبلغ مساحة حارة اليهود اليوم 4 أضعاف حجمها عام 1948 (حوالي 17% من مجموع البلدة القديمة) لقد تمخضت هذه المرحلة عن وجود حارة عنصرية تخلو من غير اليهود ، وذلك بموجب قرار محكمة العدل الإسرائيلية العليا الذي يمنع سكنى غير اليهود في حارة اليهود ، وذلك طبعا بهدف « التعايش المشترك والسلام الداخلي في المدينة « . لقد بدأت أعمال الترميم وإعادة البناء وتأهيل الحارة مباشرة بعد ترحيل أهلها . وتم تبليط الشوارع والساحات العامة ببلاط حجري بعد إرساء بنية تحتية عصرية شاملة . ثم قامت شركة تطوير حارة اليهود بتدعيم وترميم المباني القائمة ، خاصة تلك التي تعود ملكيتها لليهود وإزالة المباني الأخرى ، خاصة التي تعود في ملكيتها للعرب ، وتصميم مبان حديثة بديلة لتلك التي أزيلت ، وبناء ساحات عامة جدية ، وبناء مواقف للسيارات خصيصا لحارة اليهود ، وانتهاء بتصميم حديث لشارات الشوارع والفوانيس . كما شمل المشروع فتح فرع للبريد ، وفروع للبنوك ، ومركز للشرطة ، وحوانيت استهلاكية ، ومكتبات عامة ، ومتاحف ، ومحلات سياحية ، وقاعات للاحتفالات والاجتماعات ، ومؤسسات دينية (مدارس وكنس لمختلف الطوائف). لقد كان الهدف إسكان 650 عائلة في 650 وحدة سكنية على مساحة تقارب 300 دونم .

لا يخفى على أحد أن منحى الوجود الصهيوني في فلسطين في صعود مستمر ، منذ منتصف القرن التاسع عشر . ولأنه حقق سيطرة على معظم أراضي فلسطين وجميع مقدراتها ، بما في ذلك المياه ، وحركة الناس ، والحدود ، وأقام المؤسسات التعليمية والبحثية والإعلامية ، وفرض سيطرة متنامية على فلسطين ، وبدرجات متفاوتة على عدد كبير من لأقطار العربية . ووصلت ذروة المشروع

الصهيوني بنا وطنا وبشرا ومقدسات ، في مدينة القدس . وما زال الاحتلال مستمرا في ترجمة قاعدته الأساسية المنهجية (أرض أكثر وعرب أقل) . وقد حقق نجاحات في معظم ألوية فلسطين ، والمطلع على غزو الأوروبيين للعالم الجديد ، وما فرضوه على أهله من إبادة بالرصاص والثلج والجدري والحصار ، وبقاعدة (فرق تسد) ، ومن استخدامهم لمئات الاتفاقيات مع أمم الهنود الحمر كإجراء آني مرحلي مؤقت وبنية الغش والخداع والتراجع عن كل الاتفاقيات وانتهاكها وما صاحبها من عمليات تشويه خطير لصورة ضحاياهم الذين تمت إبادتهم ليتحولوا إلى أقلية محاصرة في محتشدات منفصلة معزولة.

لم ولن يتراجع المشروع الصهيوني عن طبيعته الأساسية وهي (الاستيطان والتهجير) وبخاصة في القدس . وإذا لم ندرك هذه الحقيقة فإن علاقة الوجود فيما تبقى من الأحياء العربية في القدس ، مع أحياء المستوطنين ستصبح بعد عقود قليلة كعلاقة يافا مع تل أبيب . مستوطنة تل أبيب التي أنشئت على صورة سقائف على الرمال الشمالية لمدينة يافا عام 1908 بدأت في التوسع والانتشار حتى ابتلعت يافا في العام 1948 بعد تهجير أهلها بقذائف الهاون والرصاص في البر والبحر .

إن مصير الشعوب ومستقبل الأمم لا تحدده مستندات ملكية الأرض ، ولا مبادئ الحق والعدل والمنطق ، وإنما قدرة الأمة على الدفاع المشروع عن وجودها ، ليس فقط من الاقتلاع والطرد والتهجير والتشتيت فحسب ، وإنما من الإبادة والفناء . وهي إبادة للهوية والوجود المعنوي والذاكرة . وعلينا متابعة التغيرات الجدية في المجتمع الإسرائيلي وجنوحه نحو مزيد من العنصرية والدموية والروح العدائية، مع نفوذ هائل لأحزاب متدينين يؤمنون بأساطير وخرافات ، ويعملون بصورة مؤسسية للاستيلاء على المسجد الأقصى المبارك تمهيدا لهدمه بدعوى إعادة بناء الهيكل الثالث المزعوم .

ويزيد الصورة خطورة وجود ملايين من الصهاينة غير اليهود في الولايات المتحدة وبريطانيا واستراليا ، ودول أوروبية أخرى ، يؤمنون بضرورة هدم المسجد الأقصى لإعادة بناء الهيكل المزعوم ، لينزل المسيح ويقود معركة ، في شمال جنين ، يطلق عليها (هار مجدون) تكون نتيجتها إبادة كل أعداء اليهود ، وتستمر عملية دفن الجثث (7) أشهر .

الخطر الجدي لأن هؤلاء الغلاة الإرهابيون أصبح لهم في أمريكا منذ الربع الأخير في القرن العشرين، مئات من المدارس والكليات والإذاعات ومحطات التلفزيون . بل أصبح لهم نفوذ كبير جدا ومتعاظم في كل وسائل الإعلام ومؤسسات التعليم وفي الكونجرس والبيت الأبيض . مما يستدعي إعادة النظر في كل أساليبنا وفي خطابنا ، وإخضاع أدائنا لمراجعة جدية وعميقة ودقيقة ، وذلك كي نعترف بما يلي :

ما كان المشروع الصهيوني ليتمكن من إقامة رأس جسر له في فلسطين وتطوير وجوده لولا إصابة الأمة بمرضين قاتلين هما : الانقسام ، والتخلف .

إن أداءنا منذ هزيمة العام 1948 وهزيمة العام 1967 أسهم بصورة أو بأخرى في تغذية السببين المنتجين للهزيمة ، وهما الانقسام والتخلف .

أداؤنا لا يتعدى مستوى محاولة عرقلة المؤسسة الصهيونية ، ولم يصل في أي مرحلة إلى مستوى الرد الفعال القوي المؤثر ، وبخاصة في القدس . وبالتالي فإن استمرار هذا المستوى ، وهذه النوعية من الأداء يعني هدم المسجد الأقصى تدريجيا . وإن ردود الفعل العاطفية الارتجالية التي تعودنا عليها سوف تخدم الاحتلال نفسه ، وقد يستخدمها لتهجير أعداد كبيرة خارج فلسطين .

خطر التهجير ما زال قائما ، وإن نفوذ ومكانة وشعبية الذين يجهرون ببرامجهم بتهجيرنا ليس

فقط من الضفة والقطاع ، وإنما أيضا من الساحل والنقب والجليل ، أصبح منحنى نفوذهم في صعود مستمر . ولم تعد برامج وخطط التهجير في الكواليس ، وإنما أصبحت معروفة ومألوفة وتنشر تفاصيلها في الصحف ووسائل الإعلام . لكن هناك تهجير يومي في القدس ، وكل الضفة والقطاع ليس بأسلوب الرصاص والمجازر ، وإنما بالحصار والتمييز والضغط والخنق بكل الأساليب ، بما في ذلك جدار الضم العنصري ، ومصادرة الأراضي ، وسحب الهويات من المقدسيين ، وهدم المنازل بحجة عدم الترخيص ، وبالمخدرات ، وعرقلة الحياة اليومية ، مما يؤدي إلى مزيد من القلق والتوتر ، وكذلك ارتفاع معدلات البطالة .

هذا الهجوم الواسع علينا بعامة ، وعلى القدس بخاصة ، يدفع ثلاث فئات إلى الهجرة الدائمة أو المؤقتة التي غالبا ما تكون مقدمة للهجرة الدائمة ، وهذه الفئات هي :

- المتعلمون .
- الشباب .
- أصحاب رؤوس الأموال .

وماذا يبقى للوطن بعد تهجير هذه الفئات الثلاث ؟ هل نستطيع أن ندافع عن ما تبقى من وجودنا بالأميين المقنعين ، وبالبطالة المقنعة ، وبالمتقاعدين ؟

طالما أن القدس معزولة عن محيطها وأهلها ، ولا يستطيع الناس الوصول إليها لأداء الصلاة ، وطالما أننا وطنا وأمة نعاني من الانقسام ، ومن سياسة المحاور المتصارعة ، وطالما يستغول الاحتلال ويتجه المجتمع الإسرائيلي نحو مزيد من العنصرية والدموية والتوسع ، فإن النتيجة معروفة وهي الاستيلاء على المسجد الأقصى تمهيدا لهدمه استعدادا لإقامة الهيكل الثالث المزعوم .

وإذا رافق ذلك احتجاجات غاضبة عاصفة وفوضى شاسعة النطاق في عدد من الأقطار العربية فإنها ربما ستكون فرصة للاحتلال لتحقيق مزيد من الإعياء وعدم الاستقرار في عدة أقطار عربية ، أو خلق أخطار جديدة للحكام ليصبحوا أكثر ارتباكا وضعفا .

علينا الاعتراف بحقيقة أن الاحتلال أصبح أقرب ما يكون من تحقيق إستراتيجيته في تهجيرنا وتشديد قبضته على القدس وهدم المسجد الأقصى المبارك .

وجاء في كتاب (المسيحية والتوراة \بحث في الجذور الدينية لصراع الشرق الأوسط) لشفيق مقار \منشورات رياض الريس للكتب والنشر \ لندن – الطبعة الأولى 1992 :

« قال بوبي براون مستوطن جاء من نيويورك : « إن كان هدم المسجد لبناء الهيكل مكانه سيشعل نيران حرب كبرى ، فليكن . في البداية ، عندما جئنا إلى هنا واستخدمنا تكتيكات حرب العصابات في أخذ الأراضي من العرب وبناء مستوطناتنا عليها كان الأمر مثيرا . لكننا الآن نشعر بالملل . فنحن مسلحون تسليحا كاملا . ونشعر أن وجود مسجد في وسطنا وصمة عار لأرضنا , فالمرء لا يرى صورة ليروشالايم إلا ويرى فيها ذلك المسجد ! ولذا يجب أن يزال . وسوف نبني هيكلنا الثالث مكانه في يوم من الأيام . ونحن يجب أن نفعل ذلك لنجعل العرب يرون ، لنجعل العام كله يرى أننا أصحاب السيادة على يروشلايم ، وأصحاب السيادة على كل أرض إسرائيل » .

وجاء في نفس الكتاب : « وفي سنة 1989 نشرت مجلة التايم الأمريكية تحقيقا ، تحت عنوان « هل آن أوان بناء هيكل جديد ؟ » وكما جاء في المقدمة ، كان لؤم العنوان باعثا على الغيظ . فتحت التساؤل « هل آن الأوان ؟ »، وضعت المجلة عنوانا فرعيا بلغة الكلام المزدوج التي يجيدها

كتبة الإعلام «العالمي « قالت كلماته : إن اليهود التقليديين (المتدينين الطيبين) يأملون (بدلا من يخططون) في تشييد بناءهم المقدس (ومن ذا الذي يعترض على تشييد بناء مقدس ؟) لكن مسجدا وقرونا من العداء تقف في طريقهم (لكن «المحمديين» بمسجدهم وعدائهم الديني الضارب في القدم يقفون في طريق اليهود المساكين ويحرمونهم من تشييد بنائهم المقدس « .

في أفضل الأحوال ، وأجمل الأحلام سيكون مصير المسجد الأقصى كالمسجد الإبراهيمي في الخليل ، الذي بدأ الاحتلال يسيطر عليه تدريجيا ، ويحقق في كل مرحلة وبعد كل حادث تحكما إضافيا وقضما إضافيا لأروقته .

وزرت قبل أقل من عامين المسجد الإبراهيمي ، فكانت الصورة مذهلة ومرعبة :

يفرض على كل المصليين اجتياز (3) حواجز تفتيش عسكرية قبل دخول المسجد .

يستولي الاحتلال على نصف أروقة المسجد ويمنع المسلمين من الوصول إليها في أي حال من الأحوال .

على مؤذن المسجد أن ينتظر وقوفا أمام باب مغلق قبل كل أذان حتى يصل الضابط ، ويفتح الباب للمؤذن ليرفع الأذان ، وعلى المؤذن مغادرة المكان بعد رفع الأذان . وقرأت كثيرا من تقارير رئيس سدنة المسجد في ملف بمديرية أوقاف الخليل التي تؤكد أن الأذان لم يرفع في بعض الشهور بسبب أن الضابط لم يفتح الباب وبالتالي لم يتمكن المؤذن رفع الأذان .

يدخل ضابط بعد صلاة العشاء إلى المسجد بما في ذلك الجدار القبلي والمنبر والمحراب بدعوى تفتيش المسجد ، ويغلق المسجد ويحتفظ بالمفتاح .

على الإمام والمصلين الانتظار فجرا حتى يأتي ضابط بمفتاح المسجد كي يتمكن الناس من الصلاة .

وتحقق للاحتلال من خلال هذه السيطرة التامة على ما تبقى من المسجد الإبراهيمي في الخليل بعد المجزرة التي نفذها مستوطن خلال صلاة الفجر في المسجد في العام 3991، قتل خلالها عشرات المصلين .

علينا أن لا نتهرب من الحقيقة المرة السوداء البالغة الخطورة بأن خطط الاحتلال على المسجد الأقصى أشد خطورة من المسجد الإبراهيمي في الخليل . بدعوى وجود الهيكل المزعوم تحت المسجد الأقصى المبارك . ورغم خطورة الأوضاع الحالية ، وما يحاك ضد وجودنا بشرا ووطنا ومقدرات ومقدسات ، إلا أننا نملك قوة جديرة أن نحمد الله عليها ، وهي وجود (4،7) مليون عربي في فلسطين ، لكن هذا الوجود مهدد ، ليس من الاحتلال ومخططاته فحسب ، وإنما أيضا من انقسامنا وقبليتنا وطائفيتنا وذهنيتنا . ومن تعريفنا للنضال والعمل الوطني ، ومن قراءتنا لديننا ، ومعايير التدين ، التي لا تعبر إلا عن جزئيات محدودة ، بينما نغفل ما في الدين من طاقات هائلة قادرة على منحنا مزيدا من الوحدة والقوة والجهد المؤسسي .

وبكلمات واضحة راسخة لا تقبل الضبابية والمواربة والتردد والتأويل ، علينا (فك الارتباط) مع الاحتلال ، لأن أداءنا السيئ والعسكرة واللاعقلانية والقبلية والفساد ، بمثابة روافد للاحتلال تغذيه وتقويه ، ولأن الانقسام وعبادة الكراسي بمثابة تواطؤ مع الاحتلال ، الذي يستمر في تهديد القدس واستهداف وجودنا المادي والمعنوي في القدس ، وفي فلسطين كلها .

الاحتلال ليس قدرا لا نستطيع مقاومته ، وهو عنيف ومتوحش ، لكنه يعاني من نقاط ضعف ، وهذا واجبنا أن نسلط عليها الضوء ، لنضغط عليه ضغطا متواصلا متصاعدا ، حتى نحقق الأمن

والحرية والعدل والسلام على أرضنا لنا ولأولادنا وأجيالنا القادمة .

والقدس مع كل مكانتها السامية والمقدسة والجليلة لدى أكثر من ملياري مؤمن في هذا الكوكب، ومع مركزيتها في ذاكرتنا الدينية والتاريخية والقومية والوطنية ، فإنها مدينة ، والمدن لها كثير من صفات الكائنات الحية ، التي تولد وتنمو وتتطور وتتألم وتبتسم وتتجهم وتذبل وتذوي وتتغير طبيعتها . وهذه القسطنطينية عاصمة الدولة الرومية لأكثر من ألف عام ، تحولت طبيعتها وهويتها في عام 1453على يد السلطان محمد الفاتح لتصبح عاصمة للدولة العثمانية ومركزا للخليفة .

وهذه أيضا غرناطة إحدى أبرز وأعظم حواضر العرب والمسلمين ، استولى عليها فرناندو وإيزابيلا في العام 1492 ، ليمسخ وجودنا هناك ، إلى آثار تجلب الربح وتستقطب السياح .

ورغم شراسة وخطورة تصعيد الاحتلال لهجومه علينا بشرا ووطنا وذاكرة ومقدسات ، ورغم إمكانياتنا الحقيقية للرد على هذا العدوان ولجمه ، فإن كثيرا من قادتنا وأمرائنا ، ما زالوا يتمسكون بهوامش القبلية ، وبأولويات وبرامج ، ليس من بينها مصلحة البلاد والعباد ، وفي مقدمتها حقوق أهلنا في القدس ، وفلسطين كلها ، حقوقهم كبشر ومواطنين في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس التي تشكلت القبلية واللاعقلانية والعسكرة والفساد روافد للاحتلال . وليس أدل على تمسكنا بهذا الرباعي المدنس ، من اختلافنا حول تحديد موعد مشترك لإطلاق (القدس عاصمة الثقافة العربية) للعام 2009 لذلك حددنا ثلاثة مواعيد ، ولم نتفق على موعد واحد . وأستذكر قول المتنبي :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام